محاضرة:

المؤثرات الأجنبية في النقد الأدبي

1ـ تمهيد:

كانت الدولة العباسية تمتد من حدود الصين و أواسط الهند شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن المحيط الهندي و السودان جنوبًا إلى بلاد الترك و الروم شمالا. وكانت تضم أوطانا كثيرة، وتعيش فيها شعوب متباينة في الجنس، و اللغة و الثقافة، غير أنّها لم تكد تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزاجًا قويا، ومضت هذه الأجناس تنصهر في الوعاء العربي. وقد أسرع من أسلموا من شعوب إيران و العراق، و الشام و مصر، وبلاد المغرب إلى تعلّم لغة القرآن الكريم و الحديث النبوي. وبعد فتح هذه البيئات بنحو قرن نجد العربية قد ملكت ألسنة الناس وقلوبهم في جميع أنحائها.

وأقبل الفرس على التّعرّب إقبالا منقطع النظير فأكبّوا على تعلم العربية حتى أتقنوها فلا نكاد نتقدّم في العصر العباسي حتى يصبح جمهور العلماء، والكُتّاب و الشعراء منهم. فقد تألّق نجم أبي حنيفة في درس الشريعة الإسلامية، وسيبويه في جمع العربية و أصولها النحوية، وابن المقفع في صناعة الكتابة، وبشار وأبي نواس في الشعر وغيرهم كثر. وتحولت الثقافات العامة التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة إلى العربية، و أهم هذه الثقافات حينئذ الثقافة الهندية و الفارسية و اليونانية.

وكانت الثقافة الهندية تصل عن طريق الفرس وما سقط إليهم منها، وعن طريق من دخلوا منهم حديثا في الإسلام و اندمجوا في عرب العراق. وكانت الثقافة الفارسية أبعد تأثيرا في المحيط العربي لهذا العصر. فقد دخل جمهور الفرس في الإسلام واقتبس العرب كثيرا من صور حياتهم في المطعم و الملبس، و بناء القصور ونظام الخدم. وأخذوا يحكون عن أقاصيصهم و أخبار ملوكهم و حكمائهم.

وكانت الثقافة اليونانية أهم ثقافة أثّرت في الفكر العباسي، عن طريق النّقل و الترجمة، و ليس عن طريق اختلاط أصحابها بالعرب. حيث لم يختلط العرب باليونان و البيزنطيين إلاّ اختلاطًا محدودا عن طريق العبيد، و الرقيق البيزنطي الذي كان يقع في الأسر أو يباع في سوق النخاسة.

ازدهرت الحياة العقلية في العصر العباسي الأول (132هـ ـ 232هـ) ازدهارا كبيرا وتلاقت في الحواضر الإسلامية شتى الثقافات التي تُمثّل حضارات الأمم العريقة في أثرها في العلم و الثقافة. فكانت الدولة مزيجا من شعوب كثيرة وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر هذه الثقافات.

كان النفوذ في دولة الخلافة للفرس، وانتشرت ثقافتهم انتشارا كبيرا على يد الوزراء وكتّابهم الفارسيين، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية، و العرب الذين أتقنوا الفارسية إلى العربية تراث الفرس القديم في الحضارة و الثقافة، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادرا عن عقليتين و ثقافتين. وكان رجال العلم في هذا العصر أكثرهم فارسيون حتى قال ابن خلدون: إنّ حَمَلَة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم. ودخلت الثقافة اليونانية في هذا العصر على الفكر الإسلامي بتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب، و النجوم و الفلسفة من اليونانية إلى العربية.

تجمعت هذه الثقافات في العراق في العصر العباسي الأول و أحدثت أثرها في العقول و الأفكار، وكان المُتكلّمون أكبر عامل في امتزاج هذد الثقافات، و صلة بين الفلسفة اليونانية والأدب، فقدّموا معاني للأدباء لم يكونوا يعرفونها. وفي العصر العباسي الثاني (232هـ ـ 334هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات و اتصالها بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة و تشجيع الخلفاء و الوزراء للعلم و العلماء.

2 ـ أثر الثقافة الأجنبية في الحياة الفكرية والأدبية العباسية:

انتشرت في العصر العباسي ثقافات مختلفة نتيجةً لاختلاف السكان من حيث أصولهم وامتزاج بعضهم مع بعض في السكنى و التزاوج، ونمو الحضارة نموّا يستدعي علمًا واسعًا لكثير من شؤون الحياة، فإلى جانب الثقافة العربية الإسلامية ظهرت الثقافة الفارسية، و الثقافة اليونانية و الثقافة الهندية، كما كان هناك ثقافات دينية كاليهودية و النصرانية.

أ ـ الثقافة الفارسية: إنّ الأدب في كلّ عصر ظِلُّ الحياة الاجتماعية وقد ظهر أثر الثقافة الفارسية في مختلف ميادين الحياة العباسية، و في النواحي الاجتماعية و الأدبية على وجه الخصوص، وكان مظهرها واضحا جليّا فالناس يتّخذون من مناسبات الفرس و احتفالاتهم أيّامًا يحتفلون بها، و أصبح القضاة و عظماء الدولة يلبسون القلنسوة كالفرس، كما تسرّبت بعض الألفاظ الفارسية إلى اللغة العربية، و انتشرت مجالس الغناء و اللّهو، و الشراب وهي مجالس الفرس. فهم ميّالون إلى الإفراط في الشراب، و الغناء وظهر ذلك مترجما في شعر تلك المرحلة. وقد كان للفرس أثر كبير في الأدب العربي غير صفة اللهو و المجون، فكتبهم التي نُقلت من الفارسية إلى العربية (ككليلة و دمنة، وهزار إفسانة) أساسا من الأسس التي بَنَت عليها الأجيال المتعاقبة ما بين أيدينا من قصص عربية. فقد عني المترجمون بترجمة العديد من الكتب الفارسية في التاريخ و الأدب، فترجم عبد الله بن المقفع " كتاب خداينامه " وهو كتاب في تاريخ الفرس من أول نشأتهم إلى آخر أيامهم. كذلك ترجم ابن المقفع عن الفارسية "كليلة ودمنة" و كتاب " التاج في سيرة أنوشروان " و كتاب " الأدب الكبير " و " الأدب الصغير " و كتاب " اليتيمة ".

وقد كان كثير من الفرس الذين أتقنوا العربية، وتثقفوا الثقافتين الفارسية و العربية أنتجوا في الأدب العربي نتاجًا جديدا كالفضل بن سهل، وسهل بن هارون، وابن المقفع. كما نرى قوما من العرب تعلّموا الفارسية، ووجدوا فيها من الغذاء ما لم يجدوه في العربية، فعكفوا على

كتبها يتدارسونها و يمعنون في دراستها ثم يُخرجون أدبا عربيا، فيه معاني الفرس، وبلاغة العرب مثل " العتابي " الشاعر العباسي الذي تثقف بالثقافة الفارسية.

ب ـ الثقافة الهندية: عرف العرب الهند في الجاهلية، و اتّصلوا بهم تجاريا و أولعوا بالعود الطّيب الذي يُجلب من الهند، كما أولعوا بالسّيوف الهندية، وسمّوا السيف المطبوع من حديد الهند المهنّد. ولمّا فتح المسلمون فارس و العراق فكّروا في الهند، فتتابع المسلمون يغزونها ويصيبون منها المغانم حتى وُجِّه محمد بن القاسم الثقفي إلى الهند ففتح جزءا منها، وهو المسمى بالسّند سنة 91 هـ، وقد غنموا مغانم كثيرة، وسَبوا سبيا كثيرا. و أصبح الجيل السندي عنصرا من العناصر المكوّنة للأمة الإسلامية. وسرعان ما رأينا الموالي الذين جُلبوا من الهند، وغُنموا في الحرب نَبَغَ منهم ومن أولادهم الشعراء، وعلماء اللغة و المحدّثون. فمن الشعراء كان أبو عطاء السّندي. واشتهر من اللغويين ممّن أصله هندي ابن الأعرابي، ومن المحدثين أبو معشر نجيح السندي.

أثّر الهنود في الثقافة الإسلامية من ناحيتين ناحية مباشرة باتصال المسلمين أنفسهم بالهند من طريق التجارة ومن طريق الفتح الإسلامي، وناحية غير مباشرة بنقل ثقافتهم بواسطة الفرس، فقد اتّصل الفرس بالهنود اتّصالا وثيقا قبل الفتح الإسلامي فلمّا نُقلت الثقافة الفارسية إلى العربية نُقل جزء من الثقافة الهندية في ثناياها.

وقد عدّ المسلمون الهنود إحدى الأمم الأربع ذات الصفات الممتازة وهي: الفرس و الهند و الروم و الصين. وقال الجاحظ فيهم: اشتهر الهند بالحساب وعلم النجوم و أسرار الطّب و الخرط، و النجر و التصاوير، والصناعات الكثيرة العجيبة.

لقد كان للهنود فلسفة، كما انتشرت لديهم ديانة البراهمة و البوذية. وقد أطال البيروني في وصف الفلسفة الدينية للهند، كما توقّف عند مسألة تناسخ الأرواح التي يعتقدون بها. وقد

عرف المسلمون هذه الفلسفة، وهذه المعتقدات و ناقشوها. كما اتّصل المسلمون بالهند في الرياضيات و أخذوا عنهم قبل أن يتّصلوا باليونان و كذلك الشأن في الفلك.

وتأثر الأدب العربي بالثقافة الهندية فعُرِّبت ألفاظ هندية، و دخلت آراء في الأدب و البلاغة نُقِلت إلينا عنهم. كما نُقِلت العديد من القصص الهندية، و قد أولع العرب بها من ذلك قصة السندباد. كما أن في كتاب ألف ليلة و ليلة قصصا دلّ البحث العلمي أن أصلها هندي. كما نُقلت إلى العربية الكثير من الحِكم الهندية التي تتّفق و الذوق العربي. وقد كانت هذه القصص و الحِكم عنصرا هامّا من عناصر الأدب العربي.

ج ـ الثقافة اليونانية: لقد كان للثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين، وممّا زاد في أثرها أنّ اتّصال المسلمين بها صاحَب عصر تَدوينِ العلوم العربية، فتسرّبت الثقافة اليونانية إليها و صبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير كبير في الشكل و الموضوع.

فأما الشكل فيرجع إلى تأثير المنطق اليوناني فقد صبغ العلوم العربية صبغة جديدة صبّت في قالبه، فقد تتابع المترجمون يترجمون الكتب المنطقية. وقد كان للمنطق سلطان كبير على العقول في العصر العباسي فقد اصطبغت طريقة الجدل، و البحث، و التعبير بأساليب المنطق، و أصبحت الكتب ترتّب و تقسّم ترتيبا، و تبويبا منطقيا. و أما في الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير في الفلسفة العربية الإسلامية .

كما انتقلت بعض آثار الثقافة اليونانية إلى النواحي الاجتماعية في المجتمع العربي نتيجة امتزاج الجنسين العربي و اليوناني الروماني فقد كان هؤلاء الرومان يعيشون بين العرب، ولهم عادات و تقاليد، و أفكار و آراء في نظام الحكم. و لهم فنون من غناء و تصوير وما إلى ذلك، فكان العرب يقتبسون ما تيسّر لهم، كما تأثر الأدب العربي بالثقافة اليونانية فنجد ألفاظا يونانية عُرّبت، وقصص يونانية نُقلت إلى العربية إلى جانب كتب في التاريخ وفي مجالات مختلفة. كما تُرجمت حِكم نُسِبَت إلى فيثاغورس و سقراط، وأفلاطون و

أرسطو. إلى جانب كتب الفلسفة و المنطق. و لكنّ تأثير اليونان كان عميقا في الفلسفة و العلوم الرياضية و الطبية، ضيّقا خفيفا في الناحية الأدبية.

3 ـ أثر الثقافة الأجنبية في النقد الأدبي:

بدأت الثقافات الأصلية والوافدة تتفاعل في العقول، وتُحدِث تحولا كبيرا في الذوق العباسي، وقد شمل هذا التحول الشعر فبدأ يتّجه إلى الثراء والوحدة وأخذ الشاعر يحدد لنفسه إطارا فنيا ينظم فيه، وبرزت اتجاهات فنية استقطبت بعض الشعراء فتحمّسوا لها وأقبلوا عليها كمذهب البديع أو شعراء الصنعة، وكمذهب المطبوعين. كما شملت الناقد الذي بدأ يلاحظ الظواهر والقضايا ويبحثها بموضوعية ويبدي آراءه فيها على أساس من اتجاهاته، وميوله ومعتقداته الفكرية، ويحلّل ويعلّل ليصل إلى أحكام واستنتاجات مفيدة وقد أثّرت هذه الثقافات في النقد تأثيرا كبيرا وكانت من أقوى عوامل ازدهاره لأنها وجهته لمعايشة قضايا عصره، وجعلته يبعد عن الآراء العاجلة وانتحى ناحية منهجية وموضوعية. وكانت هذه الثقافة بما أودعته العقل من ثراء بداية مرحلة نقدية جديدة من اليقظة والوعي والتجديد، فلم يعد الناقد يتوقف عند الآراء المتفرقة أو المبعثرة بل راح يُسَجِّلُ أفكاره وانطباعاته في إطار فلسفي يلتزمه في وعي وتحديد.

وقد عمل نشاط حركة النقل و الترجمة في العصر العباسي إلى إثراء الأدب و النقد بما تُرجِم من فلسفة اليونان و منطقهم، فقد صُبِغت عقلية الأدباء و النقاد بآثارها العميقة في التفكير، و المعاني و طرافة التقسيم و الخيال، كما أثرى كذلك بالمتَرجَم إلى العربية من قصص الهند و أدب الفرس، فكانت الترجمة عاملا قويّا من العوامل التي دفعت النقد العباسي إلى الأمام، ذلك أنه قد انتقلت بترجمتها مظاهر أدبية و نقدية كان لها أثرها في الحركة العقلية للنقد، فوُضعت النظريات، وتدخَّل المنطق في الجدل و الحوار، و أُلّفت الكتب النقدية التي تزخر بالمناهج العلمية و العقلية التي أسّسها النقاد العرب.

وقد ظهر الأثر اليوناني واضحا في تطور النقد العربي، و أول ما ظهر كان عند المتكلّمين الذين رأوا حاجتهم الملحّة للفلسفة حتّى يدفعوا المطاعن عن القرآن. و كانت دراسة الفلسفة و المنطق وسيلة لتمكين المعتزلة و المتكلّمين عامة من الحجاج العقلي.

لقد كان المتكلّمون أكبر عامل من عوامل المزج بين الثقافات المختلفة فقد كانوا مضطرين أن يطّلعوا على الأديان الأخرى من مجوسية و يهودية ونصرانية، وكانت اليهودية و النصرانية قد تسلّحت بالفلسفة اليونانية و المنطق اليوناني، فاضطَر المتكلمون أن يتسلّحوا بنفس سلاحهم، فكانوا أول من أدخل الفلسفة اليونانية في الإسلام، وكان المتكلّمون حلقة الاتصال بين من أتى بعدهم من فلاسفة المسلمين كالفارابي، وابن سينا، وابن رشد.

و كان المتكلمون يتأثرون بمن يختلطون بهم من الأجانب، وكانوا يكثرون من سؤالهم عن قواعد البلاغة و البيان عندهم. وقد ورد في كتاب " البيان و التبيين" للجاحظ قوله: " قيل للفارسي ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، و قيل لليوناني ما البلاغة؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام، وقيل للرومي ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة و الغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة.

وعلى هذا النحو كانت تختلط آراء المتكلمين في النقد والبلاغة بآراء الأجانب، وكانوا يتأثرون بهم فيما يضعون من قواعد و أصول. فنجد فكرة " مطابقة الكلام لمقتضى الحال" التي صورها أفلاطون في بعض محاوراته، وفصّل فيها أرسطو في كتابه " الخطابة" تصل إلى المتكلمين. و أكثَر الجاحظ في بيانه من الحديث عن هذه الفكرة. فمن حين إلى حين يشير إلى أن الكلام طبقات تختلف باختلاف السامعين وطبقاتهم. ويَرِد ذلك أيضا في كتاب " الحيوان" فيجعل لكل لكل طبقة من ذلك كلاما و لكل حالة مقامًا.

ويرى شوقي ضيف أن المتكلمين لم يستعيروا فقط هذه الفكرة اليونانية من الأجانب، بل لابدَّ أنّهم استعاروا نظريات أخرى متفرقة.

وظهر أثر الفلسفة اليونانية في القرن الرابع بوضوح عند " قدامة بن جعفر" في كتاب "نقد الشعر"، كما ظهر عند " الرّماني" في كتابه " النكت في إعجاز القرآن"، وظهر ذلك عند نقاد القرن الخامس كالباقلاني في كتابه " إعجاز القرآن" وابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة".

واستطاع علماء المسلمين عن طريق هذه الفلسفة بصفة خاصة، و الاطلاع على كتابي "الخطابة" و " فن الشعر" لأرسطو أن يخرجوا بالنقد من الجوّ العربي الخالص إلى جو آخر فيه كثير من العلل، والقياسات العقلية و المنطقية اليونانية السِّمات.

تطبيق: هذا التطبيق مُوجّه إلى طلبة المجموعة الثانية جميعا بهدف الاطلاع على بعض ملامح الأثر الأجنبي في النقد العربي. من خلال الوقوف عند الأثر اليوناني في كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر. وبإمكان الطلبة البحث في الأثر الأجنبي عند فلاسفة آخرين بنفس الطريقة.

الأثر اليوناني في كتاب " نقد الشعر " لقدامة بن جعفر:

لقد وضع قدامة بن جعفر من خلال كتابه " نقد الشعر" أسس النقد الموضوعي في تاريخ النقد العربي، وهو الذي أشار إلى المنافذ التي يستطيع الناقد المنصف أن يطل منها على ما يريد من الأعمال الأدبية، ويضع حدّا للإسراف في الإدلاء بالأحكام التي تنبعث عن الذاتية و الهوى، ويحاول أن يجعل من النقد صناعة واضحة المعالم، بيّنة الحدود.

وكتاب "نقد الشعر" هو كتاب في تحديد الشعر، ونعت عناصره الأربعة: اللفظ و المعنى، و الوزن و القافية، و شرح الوجوه التي يتم بها الائتلاف بين تلك العناصر ليتم للشعر جماله و جودته، و العيوب التي تقعد به عن بلوغ درجة الجمال و الكمال.

وإذا نظرنا إلى القواعد و الأصول التي تضمنها " نقد الشعر" سيتضح لنا أن بعض هذه القواعد أفادها قدامة من تقاليد الشعر العربي و آراء النقاد العرب، و بعضها استنبطها بفكره و ذوقه الخاص، بينما هناك بعض القواعد التي استفادها من مصادر غير عربية. وكان المنطق و الفلسفة اليونانية أبرز هذه المصادر الأجنبية. ففي "نقد الشعر" نصوص تدل على وثيق صلة لقدامة بالفكر اليوناني و معرفته بثمرات هذا الفكر، مثل كلامه في الحدِّ و النوع، والجنس، والذات و العرض، وكلّها مصطلحات منطقية. كما ظهر أثر الفلسفة اليونانية كذلك في المواضع الآتية:

1ـ من الواضح أثر الفلسفة و المنطق في تصور قدامة للشعر، فقد كان للمنطق أثر في طريقة تأليف الكتاب و تقسيمه، وتبويبه. و رأى قدامة أن يحصر و يحدّد المعاني الشعرية في أغراض ستة (المديح، و الهجاء، و الرثاء، و الوصف، و النسيب، و التشبيه) وحصر المعاني بهذه الطريقة يوحي بأثر يوناني.

2ـ الكلام في "الغلوّ": فإلى جانب الذوق العربي، و آراء بعض النقاد الذين يستشهد قدامة بقولهم: أحسن الشعر أكذبه، فإنّنا نلمس الأثر اليوناني في قوله: "وكذلك يرى فلاسفة اليونانيين في الشعر على مذهب لغتهم" وإن كان لم يُصرّح بصاحب هذا الرأي من فلاسفة اليونان وهو "أرسطو" الذي يقول في كتاب "فن الشعر": " إن المستحيل المقنع في الشعر أفضل من الممكن الذي لا يقنع".

3ـ رأى قدامة في كتابه " نقد الشعر" أن المديح ينبغي أن يكون بالفضائل النفسية: العقل و الشجاعة و العدل و العفة، وهو رأي مستفاد من قول أرسطو في كتابه " الخطابة" :

" الجميل هو ما يستأهل المدح، لأنه يؤثر لذاته، وما يؤثر لذاته يمدح،....و إذا كان هذا هو الجميل لزم أن تكون الفضيلة شيئا جميلا...وأجزاء الفضيلة هي العدالة، و الشجاعة، و المروءة، والعفة، و السخاء، و العظمة، والتسامح، وصدق الحدس، و الحكمة"، ومن الواضح أن قدامة يشارك أرسطو صراحة في ثلاث من تلك الفضائل وهي: العدل والشجاعة، والعفة، وشاركه في الرابعة بالمعنى، فإن مفهوم العقل قريب من مفهوم الحكمة. أما الفضائل التي زادت عند أرسطو فقد جعلها قدامة فروعا للفضائل الأربع الأصول التي ذكرها: فجعل ثقابة المعرفة (وهي صدق الحدس عند أرسطو) و الحلم (وهو ما عبّر عنه أرسطو بالتّسامح) قسمين من أقسام العقل، ومن أقسام العدل و السماحة، وإجابة السائل و التبرع وما جانس ذلك (وهذا يقابل السخاء في فضائل أرسطو).

4- يعدّ قدامة الحماية، والأخذ بالثأر، و النكاية في العدوّ، و قتل الأقران من أقسام الشجاعة، ومن فضائل النفس التي يمدح بها، وكذلك يرى أرسطو أن عقاب الأعداء أجمل من التساهل معهم لأن مقابلة المِثل بالمِثل عدالة.

ولم تقف آثار الثقافة اليونانية في كتاب " نقد الشعر" عند آراء أرسطو، بل ضمت إليها من أفكار غيره " كجالينوس" الذي ذكره قدامة في حديثه عن بيتين من الهجاء.